مهمّات تربويّة

تقديم

أنا هيّ بنت عيد السمري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الخامس والعشرون
سورة الشورى 1 - 53

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدورنا وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

لا زلنا نذكر أنفسنا بحديث نبينا الكريم -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «إن للهِ أَهلِين من الناسِ قالوا: من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللهِ وخاصتُه.»[1] فهؤلاء لهم من الأحوال والصفات التي أهمها أنهم يقبلون على هذا الكتاب العظيم، متدارسين، متعلمين، راغبين في الحق، يرون الصفات التي مدحها الله، ويعلمون أنها صفات الذين أنعم الله عليهم فيتبعوها، وينظرون إلى ما ذمّ الله فيعلمون أنها الصفات التي أبغضها الله فيتركوها، فهم يسألون الله بلسانهم أن اهدنا الصراط المستقيم واجمعنا مع الذين أنعمت عليهم! ويسألون الله بلسانهم أن يبعدهم عن أن يكونوا مع المغضوب عليهم ومع الضالين، ويبحثون بوجدانهم ويتعلمون مجتهدين

---

[1] () أخرجه ابن ماجة (215)، وأحمد (12292).

ما هي صفات المُنعم عليهم، ما هي صفات المغضوب عليهم، والضالين ثم يحملون نفسهم على متابعة صفات الذين أنعم الله عليهم، ويحملون أنفسهم على بغض وترك صفات المغضوب عليهم والضالين. ومن ذلك ما سنقف عليه في سورة الشورى العظيمة التي تشير في ختامها إلى موضوع الصراط المستقيم الذي من اتبعه كان ممن أنعم الله عليهم، ومن تركه كان من المغضوب عليهم والضالين. أشارت السورة في خاتمتها لهذا المعنى المهم في قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) كما سيتبين لنا.

إلا أن هذه السورة لما ابتدأت بالثناء على القرآن -وهي من سور الحواميم- أشارت إلى أن سور الحواميم تعالج أحوالًا قلبية مانعة للهداية، وفي المقابل ترشد إلى طريق في التفكير وفي الفهم وفي معالجة الأمور يكون سببًا للاهتداء. السور السبع التي استفتحت بـ (حم)، آل حم كما يشير أهل العلم، كل سورة من هذه السور تشير إلى سلوك أو حال قلبية ينتج عنها سلوك إنساني يمنع من الهداية، فتعالج السورة مثل هذه الأمور، وقد مر معنا في غافر أن الكبر سبّب الجدال، وهذا الكلام يحتاج إلى شيء من التفصيل، أن تنظر إلى الداء

المشترك بين السور السبع وهو الكبر- وترى كيف ينتج الكبر حالًا قلبية وسلوكًا إنسانيًا يمنع من الإيمان.

ننظر في سورة الشورى على وجه الإجمال، ما هو موضوعها الذي تعالجه، وهذا يتبين من ميزات السورة، وأشرنا إلى أن السورة ابتدأت وانتهت بالوحي، ابتدأت بقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وانتهت بقوله: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وهاتان الآيتان ستشغلاننا في البيان اليوم.

ابتدأت بالوحي وانتهت بالوحي وأمرت بالشورى المهتدية بهدى الوحي، والشورى عبادة من العبادات؛ لأن الإنسان يشير على من استشاره من منطلق تفكيره، من منطلق مبادئه وقيمه، ابتدأت بالوحي وانتهت بالوحي، وهي اسمها الشورى من أجل أن تقول لنا: "عندما تشير على أحد يستشيرك أو أنت تطلب الشورى من أحد، لا بد أن تطلبها من أحد معه الوحي، وأنت لا تشير على أحد بشيء إلا من منطلق الوحي، ولا تطلب الشورى من أحد إلا تعلم أن منطلقه الوحي، لأن أعظم ما يشتت الناس الشورى التي تكون بعيدة عن الوحي." لذلك سنستعجب من خاتمة السورة: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) ويصف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هداية الدلالة، فتصور الشورى من هذا المنطلق، أنك بالشورى تهدي الآخرين، وهنا سيأتينا معنى أن هناك هداية دلالة وإرشاد تدل الناس وترشدهم وهداية توفيق، وهداية الدلالة والإرشاد وصِف بها النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكل من اتبع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكل من أخذ بالكتاب والسنة، أن الله يمكنهم من هداية الدلالة والإرشاد، أن يقول للناس: "من هنا الطريق"، لكن هداية التوفيق، أن يهدينا الله هداية تنشرح معها صدورنا للقيام بالعمل، هذه خاصة بالله.

معنى الشورى واضح لنا، ابتدأت السورة بالوحي، وانتهت بالوحي، واسمها الشورى لأجل أن تقول لك إن الشورى مبنية على الأخذ من الوحي، أنت لا تشر على أحد إلا بمنطلق الوحي ولا تطلب شورى من أحد إلا تعرف أنه ينطلق من الوحي، وإلا فإن الفلسفات والأفكار ستأخذ بك وتطيح يمنة ويسرة، والشورى لها أثر في الهداية.

عندما تمر بأي أمر من أمور الحياة وتحتاج إلى من يشير عليك ويرشدك، وهذا الذي يشير عليك ويرشدك لا يعرف

نهايات الأمور ولا يعرف حقائقها، لكن أنت وهو وكلنا جميعًا وليّنا الله؛ لذلك من أبرز الأشياء التي تجدها في سورة الشورى تكرار اسم الولي، وهي السورة الوحيدة التي أتى فيها اسم الولي معرفًا بالألف واللام، في غيرها أتى مضافًا (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)[2] لكن في سورة الشورى أتى اسم الولي مطلقًا، يعني أن الله ولي المؤمنين، وولي الكافرين، وولي العباد جميعًا.

هنا يتبين لنا أمر مهم: أنك مهما وجدت من يقضي لك شأنك أو يشور عليك أو يعطيك، أيًّا كان الأمر في النهاية أنت وهو وليكم الله. في أحيان كثيرة يأتي السبب يحجبنا عن وليّنا، أي أن الله يعطيك العطية عن طريق سبب -لأن هذه سنة الله في الكون- وهو من وراء الأسباب -سبحانه وتعالى- فمن كان إيمانه ضعيفًا وما معه نور، يحجبه السبب عن الولي؛ لذا في الآية التاسعة قال تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) والله يقول لنا: (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ) وهذه هي الحقيقة، لا تتخذ من دون الله أولياء. والولي هو من يتولى أمرك؛ لذا نقول: "هذا وليّ أمرنا" الذي يقوم بمهامنا، تصور طفلًا صغيرًا، فوليّه من يطعمه ويسقيه ويدبر له شؤونه، الأب

---

[2] () البقرة: ٢٥٧.

يطعم ويسقي وهو من ضمن الأسباب، فأنت لا تتخذه وليًا ولاية مطلقة، إنما تعرف أنك أنت وهو وليّكم الله. لذلك من أعجب ما يذكر -والله أعلم بصحة هذا الخبر- أن من دعاء داوود أن يسأل الله باسمه الرزاق: "يا رازق النّعاب في عشه ارزقني"، قيل إن النّعاب ولد الغراب، وفيما يذكر أن الغراب عندما يخرج فرخه يكون لونه أبيض، فأمه تستغربه في بادئ الأمر قبل أن ينبت له ريش، فتتركه أمه ولا تطعمه، فمن أين يطعم؟ يقال إنه له رائحة وفيه لزوجة فتأتي الديدان عليه حتى تصل إلى فمه فيأكلها فينمو وينمو ريشه! ثم تقبله وتبدأ بإطعامه، سبحان ربي العظيم! فأنت ووليك كلاكما يطعمكما الله؛ لذلك قال تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الله وليّنا يتولى شأننا، فلا تتولَّ غيره، والأسباب الله -عزَّ وجلَّ-من ورائها.

سورة الشورى تقول: الله هو الذي يتولانا، وتكرر الاسم مرتين مرة في بداية السورة: (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) الذي هو وليّنا، تصور لو كان هذا الأمر يتصل بديننا، ونلاحظ أنها الشورى

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) فالله يتولانا ويرشدنا ويبين لنا الحق، هذا في بداية السورة.

ثم يأتي اسم الولي مرة أخرى، وكأنه هنا معالجة أكثر لمسألة الأرزاق. في المرة الأولى في الآية: (9) ومتبين من آية : (10) أن ربنا وليٌّ، فلا تتخذ من دون الله وليًّا في كل شؤونك، في شأن دنياك وفي شأن أخراك لا تتخذ من دونه وليًّا، هو الذي يتولاك، وكل سبب يمده الله ويجعله على يد أي أحد، الله هو الذي أعطاه، وهو وليّك الذي تولاك، وهو الذي يسوق لك الأرزاق، وهو الذي يأتي لك بهؤلاء أمامك، وهؤلاء من ورائك، وهؤلاء عن شمالك، ويأتي بهذا السبب وهذا السبب حتى يتم لك الرزق الذي كتبه لك.

يتضح هذا أكثر في الآية الثامنة والعشرون من السورة، قال تعالى: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) لو كل عبد أخذ كل شيء سيصبح الناس طاغين باغين، لكن كيف يعامل الخلق -سبحانه وتعالى-؟ ينزل أرزاقهم بقدر، يقدر لهم أقدارًا تصلحهم، تسمع عنه (إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) فيعطي هذا ما ينفعه، وهذا له اختبار معين فيعطيه هذا الشيء، ثم نسمع (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا

وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) مرة أخرى، هو الذي يتولاك ويتولى جميع الناس.

نلاحظ أنه ينزل الغيث على كل الخلق مسلمهم وكافرهم، من بعد ما قنطوا ووصلوا إلى حالة يشعرون أن السحاب يتجمع ولا يأتي المطر، الله ينزل الغيث، والله ينشر الرحمة، وهو ليّ الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم يرزقهم ويعافيهم وينزل لهم الأرزاق، بل ويرزقهم بألطف ما يكون؛ لذلك نرجع للآية التاسعة عشر في السورة، نسمع هذا المعنى بوضوح: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) سبحانه وتعالى، بألطف ما يكون.

معنى ذلك أن السورة تقول: "فليكن الله هو وليّك الذي تتولاه، وهو يتولى الخلق كلهم ولاية عامة، ويتولى المؤمنين ولاية خاصة."

السورة تقول لنا: هناك نوعان من الرزق: رزق الدين ورزق الدنيا، وابتدأت بالوحي وانتهت بالوحي وقالت لنا إن الله هو الولي ولا تتخذ من دونه أولياء، وأكد لنا رب العالمين أنه هو ولينا الذي يتولانا ويرزقنا، ثم يأتي ختام السورة فيخبرنا عن أعظم أنواع الولاية، وأعظم أنواع الأرزاق.

قبل أن نصل إلى آخر السورة نرى المقدمة لهذا المعنى، نبدأ بالآية: (49) في مقدمة هذا المعنى، رب العالمين يقول لنا: (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الملك ملكه -سبحانه وتعالى- ملك السماوات والأرض بكل التفاصيل التي يتصورها الإنسان، ثم يشير إلى شيء خاص من أرزاقه، بل هو عند العقلاء أعز الأرزاق، وأعز الأرزاق على الإنسان الذرية، (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لكن أتى ربنا بنموذج يشترك كل إنسان عاقل في حبه وتفضيله مسلمًا كان أو كافرًا، الذرية.

يخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- أن الذرية هبة منه، الإنسان ليس متمكنا منها، وكل ما يجد الناس في الأرض من عقم، أو سبب من الأسباب يمنع وجود الأبناء، فإنما هو شاهد على أن الملك لله (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)، ثم يكلمنا الله -عزَّ وجلَّ-عن هذه الهبة.

ثم يخبرنا بعدها مباشرة عن أعظم هبة يهبها الخلق وهي الوحي. الأرزاق نوعان: رزق متصل بالدنيا ورزق متصل بالدين، الرزق المتصل بالدنيا ملك لله والله وليّنا فيه، والرزق المتصل بالدين ما يعطينا إياه إلا الله والله وليّنا فيه. يمكن أن

تقول: "كان يمكن أن يأتي بأي مثال آخر عن أنه يرزقنا غير الذرية، لماذا الذرية خصوصًا، ولماذا بهذه الطريقة، (يَهَبُ)؟ ما مناسبتها للرزق الديني الذي سيأتي بعدها؟ مناسبتان: أولًا: إن أي عاقل يعرف أن أعظم هبة في الدنيا من أرزاق الدنيا الذرية، وإنه يضحى بالمال لأجلهم، وإن الصحة تفنى لصالحهم، وإن العين لا تقر والقلب لا يهدأ إلا بحسن حالهم. كل الناس العقلاء يفهمون هذا.

ثانيًا: إن كل العقلاء يعرفون أنه لو اجتمع أهل الأرض على أن يعطوا فلانًا ذرية فلن تأتي. الذرية خصوصًا تجمع بين هاتين الصفتين في الرزاق: شدة الشوق إليها والحاجة إليها ومعرفة أنه لا يعطيها إلا الله.

ننقل نفس هذا المعنى إلى الهداية في الدين، أعظم عطية لأي عاقل يفهم حقيقة الحياة، أعظم عطية وهدية ومنّة ورحمة هي أن يعطي الله -عزَّ وجلَّ- الإنسان الهداية؛ لذلك انظر لشدة حال المؤمنين وهم يسألون رب العالمين الهداية لذرياتهم، كيف يكون في قلوبهم الألم الشديد، والرغبة العظيمة في أن يمنّ الله -عزَّ وجلَّ- عليهم بالهداية لذرياتهم، فنفهم من هذا كم للذرية من أهمية يقابلها اهتمام الناس الشديد

بصلاحهم، إشارة إلى أن أعظم من الذرية الصلاح، ثم أنه لو اجتمع أهل الأرض على أن يعطوك ذرية ما يعطوك، ومثله لو اجتمع أهل الأرض على أن يشرحوا صدر الإنسان للإيمان لا يستطيعون ذلك؛ لذلك تلحظ هذا الملحظ اللطيف: لماذا ذُكر أن (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ)، إلى آخر هذه الآيات، ثم مباشرة (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ) وتأتي طرق الوحي، ثم يقول -عزَّ وجلَّ-(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)؟ لله ملك السماوات والأرض يهب هؤلاء الذرية، التي هي أعظم شيء، ويهب من يشاء هذه النعمة العظيمة وهي نعمة الوحي.

عندما تنظر للرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- تعرف أن مسألة الرسالة ليست بالاجتهاد ولا بالتفكير، إنما مسألة الرسالة تكون باصطفاء الله، عز وجل.

وبالنسبة للهداية للرسالة، عندما يأتي الرسول بالرسالة، هداية الدلالة؛ أن أحدًا يرشدك ويدلّك، هذه متمكنة لكل أحد، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يرشد ويدل، أنت تدل، تستشير الناس ويدلوك، هداية الدلالة متمكنة، لكن هداية التوفيق، أن

ينشرح الصدر ويدخل الإيمان إليه، هذه إنما هي خاصة بالله -عزَّ وجلَّ- ما يهبها إلا الله، عز وجل.

الأمران في الآيات الخاصان بالله -عزَّ وجلَّ- في الأمر الديني:

أولًا: أن يصطفي من يشاء من خلقه للرسالة، لا يمكن لأحد أن يختاره أبدًا، إنما الله يهبه لمن يشاء، كما يهب من يشاء الذرية أو يجعلهم ذكرانًا، أو يجعلهم إناث، أو يجعلهم ذكرانا وإناثا، كذلك يهب من يشاء الوحي.

ثانيًا: كما في الذرية يهب من يشاء، كذلك هداية التوفيق يهبها من يشاء.

نعود مرة أخرى نؤكد على هذا المعنى: عندما نسمع أنه يهب من يشاء الهداية لا يقال: "ربنا ما شاء أن أهتدي!" هذا غير صحيح، أنت تسمع في القرآن مكررًا: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى) تسمع في سورة الكهف عن فتية آمنوا بربهم والله زادهم هدى، بهذه الطريقة، من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، قاعدة لا ننساها، نسمع في مقابل ذلك: (فَلَمَّا زَاغُوا) هم وزاغوا، (أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)، عندك فرص متكررة آيات الليل والنهار والشمس والقمر، عندك فرص متكررة في

تدبير الله لك، عندك فرص متكررة في الوحي، عندك فرص متكررة في حياتك تهملها كلها ثم تقول: "ما هداني الله!" يقال لك بعد هذا كله، الله يعيذنا، (يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) عليه كله كاملًا لأنه متكبر، فيطبع الله على قلبه فلا ينفع ولا يسمع ولا يفهم ولا أي شيء.

السورة مليئة بالمعاني، ونقف أمام الخاتمة ونتأمل فيها لأن فيها مقصدنا (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)، نسمع الآيات:

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

في هذه الآيات رب العالمين يشير إلى منّته ونعمته بالوحي، (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)، الواو واسم الإشارة في أحسن ما قيل تشير إلى ما مضى، وهو (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)، هذه الآية

السابقة تشير إلى طرق الوحي من رب العالمين لعباده، أنها محدودة بهذه الطرق. بمثل هذه الطريقة أوحينا إليك، أوحى إليه، سبحانه وتعالى، (رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)، وهنا تظهر المنّة.

يبين -عزَّ وجلَّ- في هذه الآية منّته على هذا النبي الكريم بأنه علّمه هذا القرآن العظيم، ولم يكن يعلمه قبل ذلك (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) بمعنى ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن حتى علّمك الله، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين من عقيدة وعمل؛ لأن الإيمان قول وعمل، فالنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لم يكن يعلم الكتاب الذي هو القرآن العظيم ولم يكن يعلم الإيمان الذي هو القول والعمل، إلا لما منّ ربنا عليه بذلك؛ لذلك، كما سيتبين، كل ناظر إلى هذه النعمة مقدر لها، الله -عزَّ وجلَّ-يرفعه درجات، وكل محتقر لها يرى أن من أهل الدنيا من عنده خير منه فهذا لا بد أن تسلب منه النعمة. وقد ورد في بعض الاثار "مَن أعطاهُ اللهُ تعالَى حفظَ كتابِه، فظنَّ أنَّ أحدًا أُعطيَ أفضلَ ممَّا أُعطي، فقد غَمط أعظمَ النِّعمِ" وفي رواية "مَنْ أوتيَ القرآنَ فرأى أن أحدًا أوتيَ من الدُّنيا أفضلَ مما أُوتيَ فقد صغَّر عظيمًا وعظَّم صغيرًا". من يعطيه ربنا القرآن ويعلمه إياه ويشرح صدره له ويفهمه إياه، ويرى أحدًا

من أهل الدنيا عنده شيء من عطايا الدنيا، فيرى أن من عنده الدنيا خير ممن عنده القرآن، من فعل هذا فقد حقّر عظيمًا وعظّم حقيرًا، أو قد غمط هذه النعمة التي وهبه الله إياها، هذا أول معنى يجب أن يأتينا أول ما نسمع هذه الآيات، أن أعظم النعم أن يعطيك الله القرآن، في حق النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وحيًا ورسالة، وفي حقنا تلاوة وحفظًا وفهمًا ومدارسة وقضاء أوقات معها، هذه عطية عظيمة؛ لذا من ألطف ما يمكن أن تسمع الآن أنه بعدما عظّم ربنا هذه النعمة ومنّ بها، جاء مباشرة بعدها سورة الزخرف لتقول لنا: أي شيء في الدنيا ماذا يساوي؟ زخرف، لا قيمة له. أعظم شيء يهبه الله لعباده هو أن يشرح صدورهم للإيمان والقرآن؛ لذلك عندما تقرأ في الزخرف ستجد أن رب العالمين يقول: (وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) في الكفر، من أجل ألا يرتد الناس (وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ) ثم يصف كيف يكون لبيوتهم (سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ) وعندهم (مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)، وكلها من فضة وذهب (وَزُخْرُفًا)، لكن هذا كله (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)، فأنت ماذا تظن؟

في الزخرف رب العالمين يقول لرسوله: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) آخر الشورى يقول لنبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم-: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) تعظيمًا لهذه المنة، ويقول له: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) صراط الله ولا تهتم بالدنيا ولا بزخرفها، وفي سورة الزخرف يقول لنبيه ويقول لنا: لولا أن يرتد الناس كلهم إلى الكفر لأعطى الله الكفار كل شيء، وفي النهاية كل هذا ماذا يكون؟ (وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ)، والآخرة لمن؟ (عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) ثم يقول لنبيه: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) سيرفعك الله به وستكون مذكورًا في الدنيا، مذكورًا في الآخرة، فكل هذا يقول لأهل الإيمان: "كونوا حريصين على الاعتزاز بالدين فإن المهزومين نفسيًا هم أول الهالكين المهلكين لمجتمعاتهم"، كن معتزًا بهذا الأمر، بالقرآن والإيمان وشعائره، كن معتزًا اعتزازًا يجعلك صادقًا متمسكًا بحبل الله، واعتبر هذا القرآن روحًا، كما أخبرنا رب العالمين، روح لروحك (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا).

لماذا سُمي القرآن روح؟ الروح تكون بها حياة الإنسان، فكأنه يقال لنا: روحك تحتاج إلى روح، من أين لنا هذه الروح؟ من كلام رب العالمين.

فاهتداء النفوس إلى ما يعود عليها بالخير في حياتها الأولى والثانية روح! بمعنى شُبهت هداية القلوب بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد بعدما كان ميتًا. لما ربنا يعطيك شيئًا من هداية القرآن، يدخلها إلى قلبك، ربنا يُشبه أثر هذه الهداية التي دخلت إلى قلبك كأنها أحيتك، مثل حينما يكون جسد ميتًا وتدخل فيه الروح فتحييه، كذلك معاني القرآن إذا دخلت إلى القلب أحيته، القلب يكون مثل الجثة الهامدة، تدخل معاني القرآن إلى داخله فتعطيه الروح (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) هذا مما يهبه الله، (رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) مضافة إلى الله، معنى هذا أن هذا شأن عظيم يعطيك الله إياه. فكل ما أوحى الله به إلى رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- من الإرشاد والهداية أتى في القرآن، أو أتى على لسانه -صلَّى الله عليه وسلَّم- هذا كله إنما هو روح من أمر الله.

(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- منتفي عنه العلم، فالله وهبه إياه، كأنه يختفي

وراء هذا الكلام معنى الهبة، مثل الآية السابقة، ما معنى (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ)؟ ما كان يقرأ -صلَّى الله عليه وسلَّم- ولا قرأ كتب الأولين ولا يعرف القرآن.

(وَلَا الْإِيمَانُ) ولا يعرف تفاصيل الإيمان من صلاة وصيام، لكن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ما سجد لصنم قط، ولا قبل عبادتهم للأصنام قط، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ما يدري ما الإيمان، ما يدري ما يجب علينا أن نعتقده بهذه التفاصيل والصلاة والصوم، لا يعرف تفاصيل الإيمان، لكن نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- في عهد جاهلية قومه كان يعلم بطلان عبادة الأصنام، وكان -صلَّى الله عليه وسلَّم- على الفطرة السوية يرى بطلان عبادة الأصنام وشرب الخمر والزنا، وكل هذه المعاني، وهذه كانت من دلائل نبوته -صلَّى الله عليه وسلَّم-. لما النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أتى بالرسالة، أتى بها لقوم كانوا يعبدون الأصنام وهو عاش معهم أربعين عامًا، ولا مرة من المرات قالوا له: "أنت كنت تعبد الأصنام معنا"، إشارة إلى أنهم كلهم كانوا يشهدون أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ما كان يشاركهم بهذه الأشياء. الإيمان الذي لا يعرفه النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- هو تفاصيل الإيمان لكن مجمل الإيمان الفطري كان يعرفه النبي

-صلَّى الله عليه وسلَّم- بدليل تحنثه في غار حراء. لماذا كان يتحنث -صلَّى الله عليه وسلّم- ؟ لأنه كان يعرف أن هذه الحياة لا يمكن أن تكون عبثًا، وأن هذه الكعبة المشرفة التي بناها إبراهيم، التي تشير إلى تعظيم رب العالمين شاهدة على أن هناك حقًا غامضًا، غير موجود، وأن ما عليه هؤلاء الناس باطل، فكان يخرج إلى غار حراء متحنثًا منفصلًا عن الخلق، لاجئًا إلى ربه مناجيًا له سائلًا إياه أن يرشده إلى الحق فنزل عليه جبريل، كما في القصة المشهورة.

بهذا نعرف ما معنى النفي في (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ). سننقل الآن من كلام ابن القيم كلامًا لطيفًا على قوله تعالى: (وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ)، يقول:

جَعَلْنا ذَلِكَ الرُّوحَ، أنت ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان والله منّ عليك بالكتاب والإيمان وجعل لك هذا الكتاب نورًا، يعني (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)، هذه الروح التي هي الوحي جعل الله الوحي نورًا، نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَشاءُ مِن عِبادِنا، فَسَمّى وحْيَهُ رُوحًا لِما يَحْصُلُ بِهِ مِن حَياةِ القُلُوبِ والأرْواحِ الَّتِي هي الحَياةُ في الحَقِيقَةِ ومَن عَدِمَها فَهو مَيْتٌ من لا يكون فيه من روح القرآن شيء فهو ميت، لا حَيٌّ

والحَياةُ الأبَدِيَّةُ السَّرْمَدِيَّةُ في دارِ النَّعِيمِ هي ثَمَرَةُ حَياةِ القَلْبِ بِهَذا الرُّوحِ بقدر ما تعطي قلبك من هذا القرآن، بقدر ما تكون حياتك الأخروية فيها كمال. الَّذِي أَوْحى إلى رَسُولِهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- فَمَن لَمْ يَحْيا بِهِ في الدُّنْيا فَهو مِمَّنْ لَهُ جَهَنَّمُ لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيا هي روح خذها وأحيِ قلبك بها، حتى تحيا بها في يوم القيامة، ومن لا يقبل، هؤلاء ممن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، الله يعيذنا.

وأعْظَمُ النّاسِ حَياةً في الدُّورِ الثَّلاثِ، دارِ الدُّنْيا، ودارِ البَرْزَخِ، ودارِ الجَزاءِ، أعْظَمُهم نَصِيبًا مِن هَذِهِ الحَياةِ بِهَذِهِ الرُّوحِ. كم لك حياة حقيقية؟ بقدر ما لك علاقة بهذه الروح.

وَسَمّاهُ نُورًا لِما يَحْصُلُ بِهِ مِنَ اسْتِنارَةِ القُلُوبِ وإضاءَتِها وكَمالِ الرُّوحِ بِهاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ: بِالحَياةِ والنُّورِ. الروح فيها حياة وفيها نور، ولا سَبِيلَ إلَيْهِما إلّا عَلى أيْدِي الرُّسُلِ صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِمْ ما لك طريق للروح ولا للنور إلا من طريق رسولنا -صلَّى الله عليه وسلَّم- والِاهْتِداءِ بِما بُعِثُوا بِهِ وتَلَقِّي العِلْمِ النّافِعِ والعَمَلِ الصّالِحِ مِن مِشْكاتِهِمْ وإلّا فالرُّوحُ مَيْتَةٌ مُظْلِمَةٌ، فَإنْ كانَ العَبْدُ مُشارًا إلَيْهِ بِالزُّهْدِ والفِقْهِ والفَضِيلَةِ والكَلامِ والبُحُوثِ فَإنَّ الحَياةَ والِاسْتِنارَةَ بِالرُّوحِ

الَّذِي أَوْحاهُ اللَّهُ تَعالى إلى رَسُولِهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- وجَعَلَهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وراءَ ذَلِكَ كُلِّهِ، تجد واحدًا ظاهرًا عليه الزهد والفضيلة، وعنده فقه، وعنده كلام طيب، فتطمئن أن تستشيره، يجب أن تعرف أن الحياة والاستنارة بالروح التي أوحاها الله هي وراء هذا الأمر، فما زهد ولا عنده فقه وفضيلة ولا كلامه طيب ولا ينشرح له الصدر إلا لأن عنده جزءًا من هذه الروح، ثم يؤكد: فَلَيْسَ العِلْمُ كَثْرَةَ النَّقْلِ والبَحْثِ والكَلامِ، ليس كثرة كلام ويحفظ هذا وهذا، بل مقبل على هذا العلم يفهمه ويقتبس منه نورًا، يقتبس منه روحًا، ولَكِنْ نُورٌ يَمِيزُ بِهِ صَحِيحَ الأقْوالِ مِن سَقِيمِها، وحَقِّها مِن باطِلِها، هذا هو النور، لأن هذه هي سورة الشورى، كلّ يقول لك رأيًا ونظرية وكلامًا، فتذهب لمن؟ في سورة الشورى رب العالمين يقول لنا: يوجد نور (وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) أنت تحتاج نورًا تميز به، قد لا يكون عندك كل العلم لكن عندك نورًا فتعرف من سيرشدك ويشير عليك ويوصلك إلى طريق السلامة وتعرف من سيرميك في الردى ويهلكك، وما هو مِن مِشْكاةِ النُّبُوَّةِ مِمّا هو مِن آراءِ الرِّجالِ يسمع أحدًا يشير عليه، فيقول: "هذا كلام فيه روح من كلام نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- فيه

من إرشادات القرآن"، ويسمع آخر ويكون عنده نور ويقول: "لست مرتاحًا فهذا كلام الرجال"، ثم يشبه هذا الكلام بشخص أعطاه الله أحدًا نقدًا مسكوكًا، عملة، وَيَمِيزُ النَّقْدَ الَّذِي عَلَيْهِ سِكَّةُ المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ كأنه يشبه النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنه سلم الناس عملة عليها سكة، ختم النبوة، فأنت حينما يعطيك أحدًا عملة تفتحها فتنظر إليها، هل عليها سكة النبوة التي لا يقبل الله -عزَّ وجلَّ- ثمنًا لجنته سواه من النقد، كأن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ورّث أمته عملة عليها سكة النبوة، عندما يكون معك نور تنظر لها وتقول: "عليها سكة النبوة سآخذها"، وهو شبهها بأن هذا النقد يقدمه الإنسان ليدخل الجنة، لكن توجد سكة ثانية، الَّذِي لا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ ثَمَنًا لِجَنَّتِهِ سِواهُ مِنَ النَّقْدِ الَّذِي عَلَيْهِ "سِكَّةُ" جَنْكِيزْخانْ ونُوّابِهِ مِنَ الفَلاسِفَةِ والجَهْمِيَّةِ، والمُعْتَزِلَةِ كأنه يقول الطرف الثاني تمامًا، وكُلِّ مَنِ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ سِكَّةً وضَرْبًا ونَقْدًا يُرَوِّجُهُ بَيْنَ العالَمِ فَهَذِهِ الأثْمانُ كُلُّها زُيُوفٌ لا يَقْبَلُ اللَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في ثَمَنِ جَنَّتِهِ شَيْئًا مِنها بَلْ تُرَدُّ عَلى عامِلِها أحْوَجَ ما يَكُونُ إلَيْها يأتي فرحًا معه أفكار ومعه أمور ويحمل شيئًا ثقيلًا ويضع فيه معادن، ثم يُرد عليه وهو أحوج ما يكون! تخيل أنك في صف طويل تريد أن تدخل مكانًا في حر وضر، وفرح بهذا

الكيس الذي فيه المعدن، تقول: "أكيد أن عملتي مقبولة وستكفيني وسأدخل"، وبعد هذا الوقوف الطويل يقدم هذا المال الذي يعتقد أنه عملة مقبولة، ثم تصبح هباءً، بل تُرد على عاملها الذي هو أحوج ما يكون إليها وتَكُونُ مِنَ الأعْمالُ الَّتِي قَدَّمَ اللَّهُ تَعالى عَلَيْها فَجَعَلَها هَباءً مَنثُورًا ولِصاحِبِها نَصِيبٌ وافِرٌ مِن قَوْلِهِ تَعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكم بِالأخْسَرِينَ أعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهم في الحَياةِ الدُّنْيا وهم يَحْسَبُونَ أنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا) [الكهف: ١٠٣]

وَهَذا حالُ أرْبابِ الأعْمالِ الَّتِي كانَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ أوْ عَلى غَيْرِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- وحالُ أرْبابِ العُلُومِ والأنْظارِ الَّتِي لَمْ يَتَلَقَّوْها عَنْ مِشْكاةِ النُّبُوَّةِ، ولَكِنْ تَلَقَّوْها عَنْ زُبالَةِ أذْهانِ الرِّجالِ كل يوم يستوردون فكرة، هنا ربِّ أطفالك بهذه الطريقة، وهنا عامِل الناس بهذه الطريقة، وهنا نظرية للعلاقات الاجتماعية، وهنا نظرية للاقتصاد، وهكذا! يترك الناس مشكاة النبوة ويذهبون لزبالات الرجال، وكُناسَةِ أفْكارِهِمْ كنسوها، قذرة، فَأتْبَعُوا قُواهم وأفْكارَهم وأذْهانَهم في تَقْرِيرِ آراءِ الرِّجالِ أوِ الِانْتِصارِ لَهُمْ، أضاعوا وقتهم، وفَهْمِ ما قالُوهُ وبَثِّهِ في المَجالِسِ والمَحاضِرِ، درسوا ما قال هذا الفيلسوف، وفلان وعلان ماذا

يقولون، ويكتب ما قال فلان وعلان من الفلاسفة، وتركوا سنة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- مع ادعائهم أنهم يحبونه وهم هاجرون لسنته وهاجرون لما أتى به -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأعْرَضُوا عَمّا جاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَفْحًا، ولا ننسى في سورة يس (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) اجتهد ووضع قواه وأفكاره وذهنه في سنة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أما هؤلاء وضعوا أفكارهم وقواهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال أو الانتصار لهم، وفهم ما قالوه وبثه في المجالس، وهنا دورة تدريبية وهنا دورة تدريبية.

ومَن بِهِ رَمَقٌ مِنهم يُعِيرُهُ أدْنى التِفاتٍ طَلَبًا لِلْفَضِيلَةِ.

بعضهم عنده بعض من حياة، في وسط كلام فلان وعلان وفلسفات ثم يقول: "هذا يشبه ما قاله النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-!" على استحياء! وفي نفس الوقت طلبًا للفضيلة لئلا يقال إنه لا يتابع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكن قلبه مليء بالإعجاب بأولئك. هذا ما رآه نور، لذلك (وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) من الذي يشاء الله هدايته به؟ الذي أقبل، وليس الذي ذهب لزبالات أفكار الناس، الذي اعتقد أن الذي أتى به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فقط هو الصراط المستقيم. لذلك رب العالمين يؤكد علينا ويبين لنا

حال النبي: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هذا الصراط المستقيم الذي تهدي إليه، صراط الله -عزَّ وجلَّ- الذي له ما في السماوات وما في الأرض، تريد أن تذهب لمن؟! من تريد أن يكون وليك؟ أنت تهدي، بمعنى تُرشد، دلالة الهداية بمعنى دلالة الإرشاد، أنت تدل الناس على الطريق، لكن الله، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، هو الذي يشرح صدور الخلق.

(وَإِنَّكَ) يا رسول الله (لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) المقصود وإنك تدل الناس على الصراط مستقيم، وقبلها (وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) الذين يشاؤهم الله الذين أقبلوا على هذا الصراط، فهداية الله هداية الدلالة والتوفيق، وهداية النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- هداية الدلالة فقط، أما التوفيق فهو لله، وهذا الصراط الذي تسير فيه وترشد الناس، هذا صراط يوصل لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، لوليك الحقيقي الذي ستعود إليه (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)، والحمد لله رب العالمين.